

الفصل التاسع

فرويد .. والغريزة الجنسية

يعتبر العالم النمساوي الشهير « سيجموند فرويد » من أوائل المهتمين بعلم النفس ، ولقد نهضت مدرسة التحليل النفسى على يديه ، ولقد قسم فرويد النفس البشرية إلى ثلاثة مستويات « الهو – الأنا – الأنا الأعلى » .

الهو: هو منبع الغرائز البشرية .

الأنا: هو الشخص نفسه وهى الطبقة الفاصلة بين الهو والأنا الأعلى .

الأنا الأعلى: هو الضمير والغرائز الموجودة ، إذا صعدت إلى الهو يتم إشباعها دون النظر إلى أى اعتبارات أخلاقية ودينية ، ولذلك يوجد الأنا الأعلى الذى يقف رقيب بين الفرد وغرائزه .

الغريزة الجنسية:

يقر ' فرويد : « ربما كان لابد من الاعتراف بأن العامل النفسى يؤدى أعظم الأدوار فى تحويل الغريزة الجنسية فى أبغض وأقبح الشذوذات ، ولا سبيل إلى إنكار أن قدرا من العمل النفسى . معادلا للاستمثال ، قد تحقق فيها رغم ما أفضى إليه من نتيجة مخيفة . وقد لا تبدى القدرة المطلقة للحب أقوى مما تبدى فى انحرافات هذه . والذروة والحضيض فى مجال الجنسية وثيقا الترابط على الدوام » .

نتيجتان : أظهرت لنا دراسة الشذوذات أنه يتعين على الغريزة الجنسية مصارعة بعض القوى النفسية بوصفها مقاومات . أبرزها الخجل والاشمئزاز . ومن الجائز

افترض أن هذه القوى تسهم في الحد من الغريزة الشهوانية ضمن ما يعتبر سويًا وهي وإن نمت في الفرد قبل أن تبلغ الغريزة الجنسية أوج قوتها فلا شك أنها حددت لنمو الغريزة وجهته. وقد لاحظنا أيضًا أن بعض الشذوذات التي فحصناها لا تفهم إلا بالجمع بين عدد كبير من الدوافع ، فإن هي قبلت التحليل فلا بد أنها ذات طبيعة مركبة. وهو ما يوحى لنا بأن الغريزة الجنسية ذاتها قد لا تكون بسيطة بل مركبة من عناصر انقسمت ثانية في الشذوذات، وهكذا تجذب المشاهدة الإكلينيكية انتباهنا إلى أخطا ضاعت معالمها في السلوك السوي الرتيب.

إن معرفتنا بالغريزة الجنسية لدى الأشخاص الذين يقتربون على الأقل من السواء ، يمكن أن نضيف إليها إضافة هامة مستمدة من مصدر لا يمكن بلوغه إلا بطريق معين ، فليس ثمة وسيلة واحدة للحصول على معرفة شاملة غير مضللة عن الحياة الجنسية لدى من يسمون بالعصابيين النفسيين (مرضى الهستيريا والعصاب الوسواسي وما يسمى خطأً بالنورستانيا فضلًا عن الجنون المبكر والبارانويا) ذلك بإخضاعهم للفحص التحليلي النفسي المستخدم في الطريقة العلاجية التي وضعها كل من « ج بروير » وأنا نفسى سنة ١٨٩٣ والتي كانت تعرف إذ ذاك باسم « التطهير ».

ولابد لي أن أشرح بادئ ذي بدء - على نحو ما فعلت من قبل في كتابات أخرى - أن هذه الأعصاب النفسية ، بقدر ما وصلت إليه خبراتي ، إنما تقوم على القوى الغريزية الجنسية . ولست أعنى بذلك أن طاقة الغريزة الجنسية تسهم في القوى التي تحتفظ بالظواهر المرضية (الأعراض) فحسب بل أود أن أؤكد صراحة أن هذا الإسهام هو المصدر الوحيد الثابت الأهم لطاقة العصاب. ومن ثمة فإن الحياة الجنسية لدى هؤلاء الأشخاص تظهر في الأعراض إما وحدها أو بصفة خاصة أو بصورة جزئية . والأعراض ، كما قلت في موضع آخر ، هي النشاط الجنسي للمرضى . والبيئة على هذا التوكيد قوامها العدد الذي لا ينفك يتزايد من حالات

مرضى الهستيريا وغيرهم من العصبيين الذين قمت بتحليلهم إبان الخمس والعشرين سنة الأخيرة وهى حالات قدمت عن نتائجها ، وسوف أواظب على ذلك ، تقريراً مفصلاً ورد منشورات أخرى .

والتحليل النفسى يزيل الأعراض الهستيرية مفترضاً أنها بدائل - أو نسخ مطابقة للأصل إن جاز التعبير - لعدد من العمليات النفسية والأمنيات والميول ذات الشحنة الانفعالية ، وكلها قد حيل بينها وبين الانصراف فى نشاط نفسى يحيزه الشعور، إثر عملية نفسية خاصة (الكبت) ، وهذه العمليات النفسية ، وقد استبعدت على هذا النحو فى اللاشعور ، تسعى إلى التعبير عن نفسها تعبيراً يتناسب وأهميتها الانفعالية ، أى أنها تتطلب منصراً . وهى تجد فى حالة الهستيريا مثل هذا المنصرف عن طريق عملية التحول إلى ظواهر بدنية - أى إلى أعراض هستيرية ، ونحن إذ نرجع هذه الأعراض إرجاعاً منتظماً بطريقة فنية خاصة إلى تصورات ذات شحنة انفعالية يمكنها الآن أن تدخل فى نطاق الشعور ، نحصل على أدق المعارف فى طبيعة هذه الأبنية النفسية التى بقيت لا شعورية وكذلك أصلها .

نتائج التحليل الجنسى :

وعلى هذا النحو تبين لنا أن الأعراض تمثل بديلاً عن الدوافع التى تستمد قوتها من الغريزة الجنسية ، وأن ما نعرفه عن خلق الهستيريين وهم نموذج لجميع العصبيين قبل مرضهم وعن الأحوال التى عجلت به . يتفق وهذا الرأى كل الاتفاق ، فالخلق الهستيرى يتجلى فى وجود درجة من الكبت الجنسى تزيد على القدر السوى وفى اشتداد المقاومات للغريزة الجنسية وفى ما يبدو منهم من أعراض يكاد يكون غريباً عن الاهتمام العقلى بالمسألة الجنسية ، ومن ثم يظل المريض ، ولا سيما فى الحالات البارزة ، فى جهل جنسى تام يمتد إلى سنوات النضج الجنسى .

وهذه الصفة الجوهرية من صفات الهستيريا . كثيراً يحجبها عن النظرة السطحية وجود عامل جلى آخر فى الهستيريا هو نمو الغريزة الجنسية نمواً غلاباً . بيد أن

لتحليل النفسى يستطيع دائماً أن أول هذه أعراضه قد وقع اشتراكه المحرر
تضعه المستيريا، وذلك بكشفه زوج الأضداد المميز لها إلا وهو الحاجة الجنسية
المفرطة وغاية الإعراض عن الجنس.

وفى حالة من يكون ذا استعداد هستيرى، يظهر المرض حين يواجه الشخص
مطالب موقف جنسى واقعى أو نتيجة لنموه الجنسي التدريجى أو لظروف حياته
الخارجية، ويهيئ له المرض طريقاً للهروب، وسطا بين ضغط الغريزة وما يعترضها
من نفور جنسى. والمرضى لا يحل الصراع بل يسعى إلى تجنبه بتحويل الدوافع
الليدية إلى أعراض، وحين يمرض شخص، أى رجل ما، بالهستيريا نتيجة
انفعال غير ذى بال أو أثر صراع غير متمركز على الاهتمام الجنسي، فالاستثناء لا
يكون إلا ظاهرياً، وفى مثل هذه الحالات يستطيع التحليل النفسى أن يبرهن دائماً
على أن المرضى يعود إلى العنصر الجنسي من الصراع الذى عوق العمليات النفسية
عن بلوغ غايتها السوية.

الشذوذ والعصاب:

إن جزءاً كبيراً مما تصادفه معتقداتى هذه من معارضة قائم على اعتبار أن الحياة
الجنسية التى أورد إليها الأعراض العصائية النفسية . مطابقة للغريزة الجنسية السوية.
بيد أن التحليل النفسى يعلمنا أكثر من هذا . فهو يبين أن الأعراض لا تتولد البتة
على حساب ما يسمى بالغريزة الجنسية السوية (أو على الأقل لا دائماً ولا فى
الأغلب) ، وإنما هى تعبير تحولى عن غرائز يمكن وصفها - إن أمكن التعبير عنها
مباشرة فى الخيال والسلوك دون أن ينشغل بها الشعور - بأنها منحرفة بأوسع
معانى الكلمة ، ومن ثمة تتكون الأعراض جزئياً على حساب الحياة الجنسية غير
السوية والعصاب - إن جاز التعبير - هو الصورة السالبة للشذوذ .

فالغريزة الجنسية لدى العصابين النفسين تتكشف عن كل الانحرافات التى
درسناها بوصفها تنوعات فى الحياة الجنسية السوية ومن حيث هى مظاهر للحياة

الفصل التاسع: فرويد .. والغريزة الجنسية

الجنسية السقيمة.

(أ) فالحياة النفسية اللاشعورية لدى العصبيين (بلا استثناء) تنطوى على دوافع نحو الارتكاس وتثبيت الليدو لديهم على أشخاص من نفس جنسهم . ومن المحال - ما لم نتمعمق في مناقشة الأمور - تقويم أهمية هذا العامل تقويماً دقيقاً بالنسبة للصورة التى تتخذها الأعراض فى المرضى ، ولكن لا يسعنى إلا أن أؤكد أن ثمة على الدوام ميلاً لا شعورياً إلى الارتكاس يؤدى لنا أعظم الخدمات فى تفسير المستيريا لدى الرجال على وجه التخصيص .

(ب) ومن الممكن أن نستبين - فى اللاشعور لدى العصبيين النفسين - ميولا تناظر الامتدادات التشريحية كلها ، وتكون مسؤولة عن تكوين الأعراض ، وأكثر هذه الميول وروداً وقوة هى تلك التى يقوم فيها الغشاء المخاطى للفم والشرح بدور الأعضاء التناسلية .

(ج) تقوم الغرائز الجزئية - التى غالباً ما تظهر فى أزواج من الأضداد - بدور بارز بروتزاً خاصاً فى تكوين الأعصبة النفسية ، وقد عرفنا هذه الغرائز من حيث إنها تضع أهدافاً جديدة - وهى غريزة حب النظر والميل إلى الاستعراض وغريزة القسوة فى صورتها الموجبة والسالبة ، وما تسهم به هذه الأخيرة جوهرى لفهم الطبيعة المؤلمة للأعراض وكيف أنها تكاد تسيطر دائماً على جزء من سلوك المرضى الاجتماعى ؛ وعن طريق هذا الارتباط بين الليدو والقسوة يتم كذلك تحول الحب إلى كراهية ونوازع الود إلى نوازع الجفاء وهو ما يتميز به عدد كبير من حالات العصاب والبرانونيا عامة .

وثمة حقائق خاصة تزيد من أهمية هذه المكتشفات :

(أ) فكلما وجدنا فى اللاشعور غريزة من هذا القليل يمكن أن تتزوج وضدها ، نجد دائماً أن هذه الغريزة الأخيرة تكون فعالة كذلك ، فكل انحراف إيجابى

يصاحبه ههنا نظيره السلبي : ومن يكون في اللا شعور محباً للاستعراض يكون محباً للنظر في الآن ذاته ، ومن يعاني نتائج ما كبت من نوازع سادية فثمة مصدر آخر لأعراضه مستمد من ميله المازوكى . والشئ الملفت للغاية هو ظهور الاتفاق التام مع مسلك الانحرافات " الموجبة " المقابلة . بيد أن أحد الميول المتعارضة هو الذى يقوم بالدور الغلاب فى صورة المرض .

(ب) ليس من الأمور العادية أن نجد غريزة منحرفة واحدة فقط نامية فى أية حالة خاصة من حالات الأمراض العصبية . إننا نجد عادة عددا كبيرا من هذه الغرائز المنحرفة ، كما نجد عادة بقايا منها جميعا . غير أن درجة نمو كل غريزة معينة مستقل عن نمو الغرائز الأخرى . وهنا أيضاً تمدنا دراسة الشذوذات " الإيجابية " بالنسخة المطابقة الدقيقة .

المناطق الشهوية والغرائز الجزئية:

إن جمعنا ما تعلمناه من دراستنا للانحرافات الإيجابية والسلبية، فإنه من المعقول أن نرجعها إلى عدد من « الغرائز الجزئية » التى ليست ذات طبيعة أولية، ولكنها قابلة لمزيد من التحليل . ونقصد بالغريزة - بصفة مؤقتة - الممثل العقلى للمنبهات التى تنبعث من مصدر بدنى داخلى ، والتى تكون فى تدفق مستمر ، وذلك فى مقابل " المنبه " الذى يتكون من مجموعة واحدة من الآثار الآتية من الخارج . إن مفهوم الغريزة ، إذن ، من أحد المفاهيم التى تقع على الحدود بين العقل والبدن . ويبدو أن أبسط وأوضح فرض يمكن أن يوضع فيما يتعلق بطبيعة الغرائز هو أنه ليست الغريزة فى ذاتها كيفية ، ويجب أن نعتبرها فقط ، فيما يتعلق بالحياة العقلية ، كمقدار معين من للدافع الموجه إلى العقل لكى يعمل . إن ما يميز بعضها عن بعض ، ويمدها بكيفيات معينة أنها هو علاقتها بمصادرها البدنية وبأهدافها ، إن مصدر الغريزة هو عملية تهيج تحدث فى عضو ما ، وإن الهدف المباشر للغريزة هو إزالة هذا المنبه العضوى .

ثمة فرض مؤقت آخر لا بد لنا من وضعه في نظرية الغرائز يقول: إن الإثارات تصدر عن أعضاء الجسم على نحوين أساسهما اختلافات في الطبيعة الكيميائية . ونحن نصف أحد هذين النحويين من الإثارة بأنه جنسى نوعى والعضو الخاص به بأنه " منطقة شهوية " للغريزة الجزئية الجنسية الصادرة عنه .

ويتضح الدور الذى تقوم به المناطق الشهوية يكون واضحاً وضوحاً مباشراً في حالة الانحرافات التى تعطى أهمية جنسية لفتحى الفم والشرج ، فهاتان الفتحتان تتصرفان من جميع الوجوه كأنهما جزءان من الجهاز الجنسى . وفى المستيريا يصبح هذان الجزءان البدنيان والمناطق المجاورة من الغشاء المخاطى مركز إحساسات جديدة وتغيرات فى الإثارة العصبية - وفى الواقع ، مركز عمليات يمكن مقارنتها بالانتصاب - تماماً كما يحدث للأعضاء التناسلية الحقيقة أثناء التهيجات الخاصة بالعمليات الجنسية السوية .

ومعنى المناطق الشهوية من حيث هى أجهزة مكملة للأعضاء التناسلية وبدائل لها يكون أوضح ما يكون فى المستيريا دون الأعصبة النفسية جميعاً ، وإن كان ذلك لا يعنى أنه أقل فى الصور الأخرى التى يتخذها المرض . وكل ما فى الأمر أنه أقل بروزاً لأن تكون الأعراض فيها (العصاب السوسواسى والبارانويا) تحدث فى مناطق من الجهاز النفسى أمعن فى البعد عن المراكز الخاصة المحددة للضغط الجنسى . وما يسترعى الانتباه فى العصاب الوسواسى هو معنى تلك الدوافع التى تخلق أهدافاً جنسية جديدة وتبدو مستقلة عن المناطق الشهوية .

ومهما يكن من شيء فالعين فى حب النظر والاستعراض تناظر منطقة شهوية ، وتقوم البشرة بدور مماثل فى عناصر الألم والقسوة من الغريزة الجنسية والبشرة تفاضلت فى أعضاء معينة من الجسم فأصبحت أعضاء حسية أو تحولت إلى غشاء مخاطى بحيث يكون الغشاء المخاطى هو المنطقة الشهوية بالذات .

الجنسية الطفلية:

إن الاعتقاد الشائع في الغريزة الجنسية أنها مفتقدة في الأطفال، وأنها تظهر فقط في مرحلة الحياة التي تعرف بالمرحلة أو البلوغ وليس ذلك مجرد خطأ بسيط، دائماً هو خطأ أدى إلى نتائج جسيمة، إذ إن جهلنا الحال بالشروط الأساسية للحياة الجنسية، إنما يرجع أساساً إلى هذه الفكرة، ومن المحتمل أن تؤدي الدراسة الدقيقة للمظاهر الجنسية للطفولة إلى الكشف عن الخصائص الأساسية للغريزة الجنسية، وقد توضّح لنا سير نموها، وطريقة تكوينها من مصادر مختلفة.

وجدير بالذكر أن الكتاب والمؤلفين الذين عنوانوا بشرح خصائص واستجابات الراشد قد اهتموا بالفترة السابقة في حياة سلف الفرد اهتماماً أكبر من اهتمامهم بالفترة السابقة الأخرى التي تقع في حياة الفرد ذاته - أي أنهم نسبوا إلى الوراثة أثراً أكبر من أثر الطفولة، وفي الحقيقة، وأنه يستحق أن يبحث قبل تأثير الوراثة، حقاً أننا نجد الأخيرة أسهل للفهم، وأنه يستحق أن يبحث قبل تأثير الوراثة، حقاً أننا نجد أحياناً في الأبحاث المتعلقة بهذا الموضوع بعض الملاحظات عن النشاط الجنسي المبكر عند الأطفال الصغار - عن حالات الانتصاب، والاستمناء، وحتى بعض أنواع النشاط الذي يشبه الجماع. ولكن هذه الحالات كانت تذكر دائماً باعتبارها حوادث استثنائية، أو حالات شاذة، أو حالات من الفجور المبكر، وعلى حسب معلوماتي، لم يدرك أي مؤلف منهم بوضوح وجود الغريزة الجنسية عند الأطفال في صورة منتظمة، كما أن الكتابات الكثيرة التي كتبت عن نمو الأطفال قد أغفلت عادة الفصل الخاص «بالنمو الجنسي».

وإنني أرى أن سبب هذا الإهمال الغريب، من ناحية، في اعتبارات اللياقة التي يراعيها هؤلاء المؤلفون كنتيجة لتعليمهم الخاص، ومن ناحية أخرى، في ظاهرة سيكولوجية قد استعصت على التفسير حتى الآن. إن ما أفكر فيه هو النسيان الغريب الذي يخفي الفترات المبكرة من الطفولة حتى سن السادسة أو الثامنة عند

الفصل التاسع: فرويد .. والغريزة الجنسية

معظم الناس ، ولكن ليس عند الناس جميعا . ولم يخطر لنا قبل الآن أن نشعر بأية غرابة بصدد هذا النسيان ، بالرغم من أنه كانت لدينا أسباب قوية لذلك . وذلك لأننا نعلم من الأفراد الآخرين أننا أثناء هذه السنوات ، التي لا نحتفظ منها في ذاكرتنا فيما بعد إلا قليلا من الذكريات غير المفهومة . والمتناثرة ، قد استجبنا بحماس لبعض الانطباعات ، وأننا كنا قادرين على إظهار الألم والسرور بطريقة إنسانية ، وأننا أظهرنا أدلة على الحب والغيرة وبعض الحالات الوجدانية العاطفية التي تأثرنا بها جدا في ذلك الوقت ، وأننا قمنا أيضاً بإبداء بعض الملاحظات التي اعتبرها الراشدون دليلا قويا على حصولنا على الاستبصار وعلى مبادئ القدرة على الحكم . ولكننا لا نعلم شيئا من ذلك كله حينما نتقدم في السن ، لماذا تتأخر ذاكرتنا كثيرا عن أنواع النشاط العقلي الأخرى ؟ إن لدينا ، على العكس ، أسبابا وجهية تدعونا إلى الاعتقاد بأنه لا توجد فترة نكون فيها أقدر على استقبال الانطباعات واستعادتها غير فترة سنوات الطفولة على وجه التحديد .

ومن زاوية أخرى يجب أن نفترض ، أو من الممكن أن نقنع أنفسنا بالفحص السيكولوجي للأفراد الآخرين ، أن هذه الانطباعات ذاتها التي نسيناها قد تركت مع ذلك أعمق الآثار في عقولنا ، وأنها أثرت تأثيراً فعالا في نمونا التالي كله . ولذلك ، فلا يمكن أن يكون الأمر هنا عبارة عن محو حقيقي لانطباعات الطفولة ، وإنما هو نسيان شبيه بالنسيان الذي يظهره العصايون بالنسبة للحوادث التي تقع فيما بعد ، وإن أساس هذا النسيان هو مجرد إبعاد هذه الانطباعات عن الشعور ، أى كبتها . ولكن ما هي القوى التي يصدر عنها هذا الكبت لانطباعات الطفولة ؟ إن من يستطيع حل هذا اللغز يستطيع في الوقت ذاته تفسير النسيان المستيري .

ورغم ذلك ، فيجب ألا يغيب عنا أن وجود نسيان الطفولة يمدنا بنقطة جديدة للمقارنة بين الحالات العقلية للأطفال وبين الحالات العقلية للعصايين . وقد سبق أن مررنا بنقطة أخرى للمقارنة في القاعدة التي توصلنا إليها وهي أن الجنس

عند العصائين قد بقى فى مرحلة طفلية ، أو أنه رد إليها . أفليس من الممكن أن يكون نسيان الطفولة أيضاً مرتبطاً ، فى نهاية الأمر ، بالرغبات الجنسية فى مرحلة الطفولة .

ونستتج من ذلك أن العلاقة بين نسيان الطفولة والنسيان المستيرى أكثر من مجرد لعب بالألفاظ . إن النسيان المستيرى الذى يحدث بأمر الكبت يمكن أن يفسر فقط على أساس أنه توجد عند الفرد بالفعل مجموعة من الذكريات التى أبعدت عن تصرف الشعور ، والتى تعمل الآن على أن تضم إليها ، عن طريق الارتباط ، المادة التى تبعدها قوى الكبت عن الشعور . ومن الممكن أن يقال أنه بدون نسيان الطفولة لا يكون هناك نسيان هستيرى .

إنى متأكد حقاً ، أن نسيان الطفولة الذى يحول طفولة كل فرد إلى شيء شبيه بمرحلة تقع قبل التاريخ ، والذى يخفى عنه مرحلة ابتداء حياته الجنسية ، إنما هو مسؤول عن هذه الحقيقة وهى أنه لا تنسب إلى الطفولة ، على وجه عام ، أية أهمية فى نمو الحياة الجنسية . إن الثغرات التى تكونت فى معرفتنا بسبب ذلك لا يمكن أن يقوم مشاهد واحد أن يسدها . ولقد قمت من قبل منذ عام ١٨٩٦ تأكيد أهمية سنوات الطفولة فى تكوين بعض الظواهر الهامة المتعلقة بالحياة الجنسية . ولم أقلع منذ ذلك الحين عن تأكيد أهمية العامل الطفلى فى الجنسية .

سيطرة الغرائز على الأطفال:

ويحسن أن ننتبه إلى سيطرة الغريزة سيطرة واسعة المدى على نفسية الطفل . فهو لا يتعلم كيف يتحكم فى غريزته إلا تدريجياً . وهذا لا ينفى بطبيعة الحال أن البالغين أيضاً تسيطر غرائزهم على سلوكهم سيطرة أشد مما يعترفون به غالباً . ونحن أحياناً نقول أن النساء تسيرهن الغريزة ، أما الرجال فيسيرهم العقل . والحقيقة أن الرجال والنساء جميعاً تسيرهم الغريزة . بيد أن الرجال يبحثون فيما بعد عن مبررات عقلية لسلوكهم .

وفي كثير من الأحيان يعمل الطفل بوحى من غريزته. ولكن الغرائز كثيرا ما تتعارض مع تياراتها. فغريزة إثبات الذات قد تتعارض مثلا مع غريزته الاجتماعية التى تطالبه بإرضاء المجموعة ، فلا يدرى كيف يوفق بين هذين الاتجاهين ، ولا يتعلم إلا شيئا فشيئا كيف يتحكم فى ميوله الغريزية ليغلب بعضها منها على بعض. وعلى هذا الأساس ، يكون ما نسميه « بالشيطنة » أو الحبث عبارة عن سلوك غريزى لم يصقل ولم يهذب.

ومن الواجب علينا أن نضع على الدوام نصب أعيننا أن الطاقات الغريزية والانفعالات الغريزية هى القوى الدافعة فى الشخصية. ولذا كان من الأهمية بمكان عظيم أن نعرف كيف نسوس الغرائز وانفعالاتها عند الطفل سياسة حكيمة فتوجهها الوجهة الصالحة ، ولا نعمل على مصادرتها.

ويجب أيضا أن ندرك أن جميع الغرائز تولد مع الطفل وتلازمه بعد ذلك طيلة عمره. وإن كانت الغرائز بطبيعة الحال ، ليست بدرجة واحدة من القوة والازدهار فى جميع مراحل العمر.

وهنا لا بدلى من التمهّل قليلا لألقى بكلمة تحذير فيما يتعلق بغريزة الجنس. فبعض الناس يعتقدون أن هذه الغريزة لا يبدأ نشاطها إلا عند البلوغ. فهذا القول تشويه للحقيقة أو بتر لجزء جوهري منها ، فالواقع أن الغريزة الجنسية لا يبدأ نشاطها بصورة شعورية إلا عند المراهقة. ولكنها قبل ذلك ومنذ الميلاد قائمة غير معدومة ونشطة غير نائمة ، ولكن فى مستوى آخر غير مستوى الشعور. ولذا قد تحدث الصدمات النفسية فى فترة الطفولة المبكرة أضرارا تقضى على التوافق الجنسى بعد البلوغ ، إذا لم ندخل فى حسابنا الحرص على سلامة تلك الغريزة ومظاهرها قبل المراهقة.

ولندكر أن علم النفس يعنى بكلمة الجنس جميع مظاهر الحياة الجنسية. فالطفلة الصغيرة وهى تلهو بالعرائس ، تنقاد فى الحقيقة لغريزتها الجنسية الأثوية ، وتعبر

بطريقة لا شعورية عن نوازع الأمومة في تلك الغريزة. والحيلولة دون هذا النشاط تلحق الأذى الشديد فيما بعد بالحياة الجنسية لتلك الفتاة ، بعد بلوغها .

وسأذكر هنا حالة نموذجية ، تدل على مبلغ ما في العبث بمسائل الجنس عند الطفل من خطورة لا ترد على بال الكثيرين :

ذات مساء ، جاءني شاب في التاسعة والعشرين من عمره ، وصارحني وهو في شدة التأثر بأنه اكتشف في نفسه شذوذا نفسيا مزعجا . فهو يشعر في أحيان كثيرة بميل نحو أشياء تخص الجنس الآخر ، لكنه ميل هادئ جدا : حتى إذا وقعت عينه على حذاء امرأة ثار إحساسه الجنسي ثورة عارمة لا يكاد يفلح في مقاومتها .

وليس من الضروري أن يكون الحذاء في قدم امرأة ، بل يكفي أن يرى في واجهة متجر حذاء نسويا معروضا للبيع كي يتتابه ذلك الإحساس الجنسي العنيف .

وعرفت من أول وهلة أنني بإزاء ضحية من ضحايا ذلك الاضطراب النفسي النادر المسمى « القلق الجنسي بحذاء المرأة » . ونومته تنوينا مغناطيسيا ، فاكشفت من اعترافاته أنه وهو طفل صغير كانت مربيته ترقده على البساط أمام نار المدفأة ثم تدغدغ بمقدم حذاءها الصغير المنطقة الجنسية في جسمه . وبهذه الوسيلة الخرقاء ، كانت تلك المربية تثير المشاعر الجنسية عند ذلك الطفل عن طريق حذاءها .

ولما كبر الطفل ووصل إلى سن المراهقة ، وتفتحت غريزته الجنسية لتؤدي نشاطها في المستوى الشعوري ، لم يجد لديه استعدادا للإثارة الجنسية على النحو المعهود عند الناس عن طريق الميل إلى وجه جميل أو قامة ممشوقة . كلاب كانت الإثارة تحدث لديه عند لمس حذاء امرأة أو رؤيته .

وقبل أن أوقف المريض من نومه المغناطيسي ، أمرته أن يتذكر بعد يقظته ذلك الحادث المدفون في أعماق اللاشعور . وفعلا تذكر بعد يقظته كل شيء رغم بُعد العهد ، وكانت نتيجة هذا أنه تخلص من شذوذه وصار كسائر الرجال الأسوياء .

الفصل التاسع: فرويد .. والغريزة الجنسية

ومن هذا المثال ، نستخرج عبرة تنفعنا في تربية أطفالنا فلا ننسى أن الطفل يولد بغرائزه الثلاث الكبرى ، وأنها تدفعه لأنواع من السلوك قد تبدو لنا « شيطنة » وخبثا وعنادا ولجاجة . وإنما هي في الواقع تيارات تفرض عليه من تلك الغرائز فرضا . فلا يمكنه إيقاف تيارها أو صده . والحكمة تقضى أن نوجه ذلك التيار اتجاهها يصرف طاقة الغريزة مع التعديل المناسب ، من غير أن نطمس تلك الينابيع التي تروى منها شجرة حياته .

فإذا رأيت ابنك الصغير يشب بحذائه القذر فوق مقعد الصالون النظيف الفاخر أو فوق وسادة الفراش ، وهو يلوح في الهواء بخشبة قذرة ويقول لك :
- أنا الفارس صاحب هذه القلعة ! . فاخرج منها ! .

فلا يذهبن بك الغضب عليه كل مذهب ، ولا تصب عليه اللطمات . فهذا الذي ترى إنما هو في الواقع تعبير صحيح ، وإن كان لا يعجبك ، عن تلك الطاقة الغريزية التي ستبنى عليها فيما بعد موهبة القيادة أو الزعامة . لهذا يجب أن تترث كثيرا وتتحكم في غضبك كي لا تصادر هذه الغريزة ، أو تخنق شجرتها في مهدها . بل ابحث عن تعديل مناسب لظواهر هذه الغريزة بحيث تتجه لدى ابنك الصغير اتجاهها يفيد في تنمية شخصيته ومواهبه ولا يتعارض مع آداب السلوك ، حتى لا تحرم الجيل القادم من أحد زعمائه المستظرين .

والبعض منا قد يشعرون بإعجاب شديد نحو ذلك الطفل الشديد التهذيب ، الذي تناديه أمه فيلبى النداء على الفور ، وتأمره أن يتخلى عن لعبه مهما كان منهمكا فيه فينفض يده منه بغير تردد . لا يصرخ ، ولا يجرى ، ولا يعارض ، ولا يتمرّد . فكأنه كلب حسن التدريب ، أو آلة مجردة من الإرادة .

ولكن مثل هذا الطفل الذي يرضى عنه أبواه ، ويصفه الناس جميعا بالطيبة ، هو في الحقيقة مثال للشخصية السلبية . وعندما يشب عن الطوق لن تكون لديه همة أو حماسة لأي شيء من تلقاء نفسه . فقد تعود الانقياد وخنقت لديه بذور المبادرة

والشخصية المستقلة والإرادة المتصرفة .

ولست أعنى أن الطفل الذى قفز فوق الوسادة بحذائه القذر ، وتحيل نفسه فارسا مغوارا فى حرب ضروس ، يجب أن يترك لشأنه . فمن الواجب بطبيعة الحال أن تأمره بالتزول إلى الأرض ، وتنظيف حذائه ، ومراعاة اللياقة . ولكن فى الوقت نفسه يجب أن تمهيا له لعبة أخرى أو طريقة من الطرق تجمع بين حسن المظهر والتنفيس عن ميوله الفطرية وتنميتها .

وزيادة فى الإيضاح ، سأقدم حالة طفل آخر ممن تعود بعض الآباء أن يضربوهم لامتداد أيديهم بالتلف إلى كل شيء . لنفرض أن طفلا أخذ المنبه من فوق المائدة أو الرف وانفرد به فى ركن وفك أجزائه . فمن الطبيعى أن يشعر أبوه بالغضب الشديد منه ، وقد يضربه ويحذره من العود إلى هذه الشيطنة .

فإن أطاع الغلام أباه مدفوعا بالخوف من عقابه الشديد ، فسيكون الضرر المترتب على تلك الطاعة أفدح بكثير من العصيان . لأن حب الاستطلاع هو الذى دفعه إلى العبث بالمنبه . وحب الاستطلاع هو الأساس الغريزى للملكة الابتكار والاستكشاف والبحث . وبذلك ربما كانت هذه العلفة الرهيبة سببا فى قتل باحث فى الكيمياء ، أو رائد من رواد الذرة ، أو الدراسات الفلكية أو الطبيعة .

والأفضل أن يتم لك الأب غضبه ، ويقدم لابنه منبهها قديما مما يباع فى محلات الخردة كى يفعل به ما يحلو له . وبذلك لا يخنق عند ابنه حب الاستطلاع بل يوجهه توجيهها بنائيا نافعا فى تقوية شخصيته ، بحيث يساعد على تقديم إنسان نافع للمجتمع .

وفضلا عن هذا ، ينبغى أن نتذكر أن خنق الميل للزعامة مثلا عند الطفل ، سيكون لديه عقدة لا شعورية تسبب له الشذوذ فى تصرفاته كأن يصبح ميالا للغطرسة ، أو غير ذلك من الانحرافات . وأن حب الاستطلاع إذا صودر عند طفل قد يؤدى به فى المستقبل إلى أنواع من الشذوذ المخجل .

الفصل التاسع: فرويد .. والغريزة الجنسية

ولهذا السبب أنصح الوالدين كلما أقدم الطفل على إتلاف شيء أو الخروج عن المألوف ، أن يحاولوا بهدوء تحليل هذا السلوك ورده بقدر الإمكان إلى الغريزة الأصلية التي دفعت به إلى ارتكاب ذلك العمل . ثم عليها أن يتدبرا الأمر بمحاولة اكتشاف التعديل المناسب بدلا من الاندفاع في الغضب ومصادرة ميول طفلها بقسوة مخيفة .

وهناك مناسبات كثيرة يكفى الإهمال والإغضاء فيها لتقويم السلوك ، فالطفل يميل إلى تسليط الأضواء على نفسه . ولهذا السبب قد يقدم على إحداث ضجة بغير مناسبة . لأنه يعلم أن تلك الضجة ستلفت إليه الأنظار وتجعله موضع اهتمام ، ولو بالزجر والتعنيف . فإذا مكر به الوالدان مثل مكره وكأنها لم يشعر بشيء غير مألوف ، ولم يعيراه نظرة عتاب ، أسقط في يده وعدل عن هذه الخطة التي ثبت له عقمها .

وأذكر حادثة من هذا النوع تدلنا على مدى حرص الصغار على اهتمام الناس بهم . وبطلة هذا المثال فتاة صغيرة في السابعة من عمرها شاءت الظروف أن يحل يوم عيد ميلادها في موعد دعوة شخصية بارزة للشاي على مائدة أبيها .

وشدد الأبوان على الصغيرة ألا تفتح فمها أو توجه الخطاب إلى الضيف . لأنه حضر للتحدث مع أبيها لا معها . وسمحا لها بالجلوس بجوار الضيف بعد أن تعهدت ألا تستلفت نظره بأى صورة من الصور .

وكانت الهدايا التي قدمها الأبوان إلى الصغيرة عبارة عن ساعة معصم من الذهب وزجاجة عطر ومنديل مطرز . فجعلت بين دقيقة وأخرى تضع الساعة على أذنها . ثم تحرك معصمها المزين بالساعة بحيث يكون أقرب ما تستطيع من الضيف . وتخرج منديلها المعطر وتضعه على أنفها . وبعد أن كررت هذه الحركات عشرين مرة من غير أن تفلح في تبييه الضيف غلبها اليأس على أمرها فخرقت التعليمات جميعها وصاحت بالضيف :

- أرجو ألا تزعج إذا سمعت صوتا غريبا يقول: تك تك تك ، أو شممت رائحة غير مألوفة ، فليس هذان إلا ساعتى الجديدة وعطرى الذى ضمخت به منديلى المزركش.

فالصغيرة المسكينة لم يعد فى استطاعتها أن تظل بعيدة عن الأضواء فى يوم ميلادها أكثر من هذا.

وكان بودى أن أحذر الآباء والأمهات من مغبة تشويه الحقائق المتعلقة بالجنس ، عندما يسألهم أطفالهم عنها. فكم من رجل عجز عن المضي فى حياة جنسية سرية لأن والديه وهو صغير غرسا فى نفسه الخزي من كل ما هو متصل بالجنس. فإذا سألك صغير لك عن تلك الحقائق ، فلا تحطها فى نظره بالغرابة والغموض ، أو النفور والخجل.

إن طفلك حين يشير إلى طائرة فى الجو ويسألك ما هذا ، لا ترد فى أن تقول له بكل بساطة واستقامة :

- هذه طائرة.

ولا يبدو على وجهك أو صوتك ما يدل على الانفعال الصريح الخفى ، فيتقبل الطفل هذه المعلومات بكل براءة ، ويستخدمها فى بناء معارفه الصحيحة عن الكون الذى يحيط به. ولكن إذا جاءك هذا الطفل ، وسألك بنفس تلك البراءة وحب الاستطلاع:

- من أين يأتى الأطفال يا أبى ؟.

فمن النادر ألا يظهر عليك الحرج ، وألا يحمر وجهك ، وتغير مجرى الحديث أو تهرب من الإجابة على السؤال بأى شكل. وعلى الفور يسجل الطفل فى ذهنه أن هناك سرا أو شيئا مخجلا أو غير مستحب حول هذه المسألة.

وليس هذا أسوأ ما فى الموضوع. فبعض الآباء يضللون الأطفال بأكاذيب

الفصل التاسع: فرويد .. والغريزة الجنسية

شائعة، مما يؤدي إلى الإضرار بعقلية الطفل العلمية، وزعزعة ثقته بأبويه، وإشعاره في النهاية بأن مصدر وجوده في الدنيا مخجل، لا يستسيغ الناس التصريح به. ويصل بهم الخجل إلى حد الكذب والخداع.

ولو أنك أجبت الطفل بنفس الأسلوب الذي اتبعته حين سألك عن الطائفة، فقل له ببراءة وبساطة:

- يخرج الطفل من بطن أمه.

إذن لتلافت كل هذه المضار، ولشب الطفل إنسانا لا يشعر بالخجل الويل من وظائف الحياة الطبيعية. ذلك الشعور الذي هو لباب التألم.

وأود الآن أن أتحدث عن أفضل الوسائل لتأديب الطفل أو توقيع العقاب عليه، من غير أن يؤدي ذلك إلى الشذوذ والالتواء.

وأول هذه الأمور في نظري، وأولها بالرعاية، ألا يكون العقاب عملية انتقامية، بل يجب أن يكون الهدف منه استبدال عادة حسنة بعادة أخرى سيئة، كم يسخطني أن أرى الكثيرين من الآباء يتزلقون إلى معاقبة أطفالهم بشدة وعنف لمجرد التنفيس عن عواطف أولئك الآباء وانفعالاتهم الشائرة.

ومثال ذلك أن يتلف طفل شيئا ذا قيمة، وهو لا يعرف بالتأكيد تلك القيمة، فينهال عليه أبوه ضربا. فيحس الطفل بالاستنكار الشديد، لما في العقوبة من جور غير مفهوم في نظره. وربما تعلم من هذه العقوبة الحذر والحرص في المستقبل حتى لا يكسر شيئا، ولكنه في الغالب سينطوي على النفور من أبيه. وسيتعلم كيف يخفي آثار أخطائه خوفا من العقاب، وسيجره ذلك إلى الكذب وترك الشبهات تعلق بأذيال الأبرياء، جبنا من تحمل مسؤولية فعلته.

وإنى أوصي الآباء والأمهات بتفهم الطفل موضع خطئه بوضوح تام قبل العقاب، وإلا لم يكن للعقاب جدوى. وألا تتأخر العقوبة عن الزمن الذي وقع فيه الخطأ تأخرا يبعد بين المسألتين في عقل الطفل.

ومن أطرف الأمثلة التى مرت بى فى هذا الصدد أن طفلا صغيرا عصى أمه ذات صباح. فقالت له :

- عندما يأتى والدك سأطلب منه أن يجلدك بحزامه عقابا لك.

وانقضى النهار وانشغل الطفل بعشرين موضوعا آخر . وفى المساء عاد الأب من الخارج ، وبعد أن عاينته الأم فى خلع ثيابه فى حجرة النوم نزل إلى قاعة الجلوس فوجد الطفل مستغرقا فى تصفح كتاب للقصص المصورة ، فقال له بهدوء :

- تعال معى فلا بد الآن أن أجلك .

وذهب الطفل مع أبيه مستسلما ، وبعد الجلد نزل إلى المطبخ فسألته الخادمة :

- لماذا تبكى ؟

- جلدنى أبى .

- لماذا ؟. ماذا فعلت حتى جلدك ؟.

- كنت أتصفح كتاب القصص المصورة .. لهذا جلدنى .

وكان واضحا أتم الوضوح أن الطفل لم يربط إطلاقا بين الجريمة والعقوبة. وأن أباه إذ أغفل تفهيمه الموقف ، قد تركه يعتقد فيه الظلم ومخالفة المعقول. وليس من المستبعد أن تترك هذه الحادثة أثرا عميقا مثل الجرح الغائر فى عقل الطفل. ويفقد احترامه لأبيه وتقديره لحسن وزنه للأمور. وربما تطور ذلك إلى عقدة اضطهاد خبيثة.

ومن الواجب أن نحسب حسابا لحدود عقلية الطفل ، فلا نكثر من الأوامر والنواهي بغير موجب. لأن الطفل فى هذه الحالة سيرتبك ولا يفقه حكمة الطاعة التى نطالبه بها. وقد أحصى أحدهم الأوامر التى صدرت لطفل واحد من أبويه منذ الغداء إلى وقت النوم ، فإذا بها أكثر من سبعين أمرا أو تحذيرا

ويحسن ألا نعاقب الطفل على شيء ثم نأتى مثله ، فالكذب والخداع وخلف

الفصل التاسع: فرويد .. والغريزة الجنسية

الوعد مسائل نعاقب عليها الطفل. فإذا ضبطنا نرتكبها احتقرنا احتقارا شديداً، حتى ولو لم يصرح بها في نفسه.

وأعرف أبوين كانت لهما ابنة صغيرة وكجميع الآباء كانا ينهيانها عن الكذب والخداع. وفي ذات ليلة رفضت الطفلة أن تنام خوفاً من أن يخرج أبواها ويتركاها نائمة في رعاية الخادمة، وتعهده الأبوان بعدم الخروج تلك الليلة، وأوت الصغيرة إلى فراشها. ولكنها ما أن استغرقت في النوم حتى خرجا.

ولسوء حظهما أيقظ صوت إغلاق الباب النائمة الصغيرة وأنصتت لوقع أقدامهما على الدرج، ثم نزلت من الفراش إلى الأرض وجذبت الخادمة من ثوبها ووقفت معها تطل من وراء الستائر على أبويها وهما يعبران الشارع، ثم أشارت إليهما بإصبعها الصغيرة وقالت للخادمة:

- هاك أكبر كذابين رأيتهما في حياتي، ولا هم لهما في ذلك إلى التشديد على لأقول الصدق دائماً.

وبعد أن كبرت هذه الفتاة قليلاً، فشل الأبوان في حملها على الإقلاع عن الكذب والخداع. فكانت تذهب لتلعب في الحدائق بعد خروجها من المدرسة، وتزعم أنها كانت تتلقى دروساً إضافية.

وليس من الغريب أن يعوج سلوك هذه الفتاة عندما تبلغ أشدها، ولا تقيم وزناً لرأي أبويها فيها، لأنها خسرت احترامهما في نظرها بسبب تلك الحادثة الصغيرة.

وأني أنصح في جميع الأحوال الآباء بأن يكون العقاب مفيداً لا ضاراً. فالطفل الذي يبعثر أوراق اللعب على البساط، يجب أن يجمع تلك الأوراق واحدة واحدة ويعيدها إلى مكانها قبل أن يسمح له بالانصراف إلى أية لعبة. فإن تلكاً، فحسب الأبوين أن يمنعه من اللعب إلى أن ينفذ الأمر.

وإذا أظهر الطفل عناداً وعصياناً وعبوساً، فحسب الأم أن تقول:

- إن العبوس يتعب الجسم . وقد ظلمت مدة طويلة عابسا ، ولذا يجب أن تذهب الآن وترقد في فراشك نصف ساعة .

فمثل هذا الاستلقاء أفضل من الضرب أو من الحرمان من الطعام ، وإن كان الحرمان من الحلوى مثلا تأديبا لا بأس به .

وليعلم الأبوان أن معاملة الطفل معاملة استبدادية تنتج عنها في الغالب آثارا تدهشهما وتثير سخطهما . وأول هذه الآثار أن الطفل بعد تخرجه واعتماده على نفسه في معاشه لا يرحب بالإكثار من زيارة أبويه ، فيتهما بالعقوق ، مع أنه في الحقيقة يعبر عن ميله للهرب من مكان عومل فيه معاملة المعتقلين ، وأين هو المعتقل الذي تستهويه زيارات السجن بعد إفلاته منه ؟

إن أفضل ما يفعله الأبوان هو كسب صداقة الطفل ، ولو على حساب شيء من راحتها الوقتية . فإن حساسية الطفل المفرطة وسيطرة غرائزه عليه ، مما يجعل الفرق به أدم النصلة وأجدى لنضوجه وسعادته المستقبلية .

كما تناول أيضا فرويد موضوع الغريزة الجنسية في حياة الإنسان قائلا :

يعرف الإنسان « اشبق » - أو الجوع الجنسي - منذ مولده ، ويتركز إشباع هذا الجوع خلال السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من حياة الإنسان في اللذة التي يستشعرها من إثارة المناطق الحساسة كالقلم والأعضاء التناسلية . والطفل في هذا يشبع نفسه بنفسه ، إذ يجد مآربه الكاملة في شخصه .

وقد تظهر على الإنسان منذ سن مبكرة ، بعض البواعث المتطرفة كالسادية أو النزوع إلى القسوة كمصدر للذة الجنسية . و« كالماسوشية » أو النزوع إلى كشف الأعضاء التناسلية والنظر إليها ولمسها والرغبة في أن يلمسها الغير . وكالفضول الجنسي . إلخ التي تعترى المرء في طفولته أو في أكثر ميل واحد منها .

وتبعث هذه النوازع في الطفل شعورا بالذنب يزداد ويستفحل إذا هدده أحد أو

توعده . وهذا الشعور يلعب دورا كبيرا فى تكوين خلقه وشخصيته وفى تكوين مرضه العصبى إذا مرض .

الحب الجنسى بين الابن والام:

ويحس المرء فى هذه المرحلة المبكرة من النمو الجنسى بيوارد الحب الجنسى ، وسرعان ما يتجه الشبق إلى إثارة وتفضيل الجنس الآخر ، وهذا من شأنه أن يؤدى إلى « عقدة أوديب » وهى من العقد النفسية بالغة الأهمية فى التحليل النفسى الذى يرمى إلى إيضاح المرض العصبى . ذلك لأن الطفل الذى يشعر نحو أمه بروابط عاطفية لا يلبث أن يصاب بالمرض العصبى فيما بعد إذا لم تخف حدة عاطفته هذه .

والواقع أن عقدة أوديب من أهم بواعث الشعور بالذنب الذى يراود المرضى بأعصابهم ويشقيهم ، بل إن الشعور بالذنب الذى يخامر الجنس البشرى بأسره - والذى يعتبر الباعث الأول للمبادئ الدينية والخلقية - قد لا يبعد أن يكون ناشئا عن استفحال هذه العقدة النفسية فى باكورة التاريخ .

ومن شأن « عقدة أوديب » هذه أن يزداد شعور الابن بالحب لأمه ، تصاحبه كراهية مكبوتة للأب قد تشتط إلى درجة تمنى موته من جراء روح الغيرة . أما عند البنت فتتخذ عقدة أوديب صورة الحب الشاذ لأبيها . والكراهية لأمها .

عقدة أوديب لب المرض العصبى:

ولابن "تسان منذ وصوله إلى سن البلوغ من أن يعكف على المهمة الكبرى التى تقضى إلى تحرير نفسه من أبويه . ولا يعتبر أنه خلف الطفولة فعلا إلا حين يتم هذا التحرر ، فإذا ذاك يصبح عضوا فى المجتمع .

ويتمثل التحرر بالنسبة للابن فى تخلص نزواته أو بالأصح شهواته من الاتجاه إلى أمه ، ليستغلها فى نشدان حب مادى آخر ، وفى إصلاح ذات البين مع أبيه إذا كان قد ظل على كراهيته له ، أو فى تحرير نفسه من تسلطه عليه ، إذا كان فى مقاومته للتمرد الصبيانى قد استسلم للخضوع له .

وتنشأ الحالات العصبية عن عدم تحقيق هذا التحرر. فيظل الابن طيلة عمره تحت تسلط الأب، ويبقى عاجزا عن نقل جوعه العاطفي إلى هدف جديد. وكذلك الأمر بالنسبة للبنات. ومن ثم نرى أن عقدة أوديب هي لب المرض العصبي أو نواته.

الصراع بين المثل العليا والشهوات:

ويتلخص أثر عقدة أوديب في تكوين الاضطرابات العصبية والنفسية في الكبر، في أنها تعمل أولا على خلق نمو أو تطور خاطئ في الغريزة الجنسية بحيث تحجز باعثا أو أكثر من منشطاتها عن النمو الطبيعي، وتدفع البواعث الباقية تمضي في نموها حتى تبلغ غايتها النهائية، فإذا ما اعترضت الشخص البالغ الناضج عقبات خارجية قوية تمنعه من إشباع جوعه الجنسي، اتجه دائما إلى الرجوع إلى البواعث التي سبق إيقافها عن النمو، والتي كانت تهيم له ثغرات للتنفيس عن ذلك الجوع.

وأعراض الأمراض العصبية النفسية التي تصيب الأفراد من جراء الحرمان ليست في الواقع سوى أسباب بديلة تعوض المريض عن الإشباع الذي يفتقده، وتجعل علامات الصراع العقلي تبدو عليه، إذ يتشبث جزء من شخصيته برغبات معينة، في حين يكافح جزء آخر هذه الرغبات. ومن ثم يدور الصراع بين الغرائز الذاتية وبين الغرائز الجنسية. إذ تكون الذاتية قد كونت لنفسها مبادئ ومثلا عليا لا تلبث أن تجدها متناقضة مع الرغبات والشهوات في أشكالها الأولية المبكرة.

انعدام الصراع العقلي ينقذ المرء من المرض:

وقد قلنا من قبل: إن الشخص حين تصادفه في كبره عقبات خارجية تمنعه من إشباع الجوع الجنسي، يتردد إلى البواعث النفسية التي سبق إيقافها عن النمو أثناء التطور الجنسي. والحالة التي شرحناها في الفقرة السابقة كيف يتسبب هذا الارتداد في خلق الأمراض العصبية. أما إذا لم يؤد الارتداد إلى مطالبة شخصية المرء بتحمل شيء من الحرمان. فإن دواعي الاحتكاك والصراع لا تجد مجالا، ومن ثم لا

الفصل التاسع: فرويد .. والغريزة الجنسية

يترتب على هذه الحالة شيء من الأمراض العصبية ، بل يجد إشباعا لأحاسيسه وشهواته في بعض أشكال الإشباع المستترة أو الكامنة.

أعراض المرض العصبى مظهر مستتر لرغبة مكبونة:

قد يتعرض المرء لموقف يعز فيه إشباع الجوع الجنسي فيتحول هذا الجوع من الظهور في عالم الحقيقة، إلى الانزواء في أعماق النفس ، حيث يثير نزعات خيالية تمت إلى بعض المراحل المبكرة من العمر ، ولو أن العقل الواعى لم يكن يفتن إلى وجودها .

والشخص فى هذه الحالة يفقد اتزان واستقراره ، ولكنه لا يصبح بعد مريضا - وإن كان مصيره إلى ذلك ، اللهم إلا إذا وجد منفذا آخر للجوع الجنسي المكبوح - وتظهر أعراض المرض نتيجة الصراع بين الشهوة التى لا يشعر بها العقل الواعى ولكنها تكافح لتنبهه إلى وجودها ، وبين رغبة شخصية المرء التى تحاول أن تقمع تلك الشهوة وتحول دون ظهورها فى مجال الوعى . وتكون الأعراض فى هذه الحالة عوامل للتوفيق بين الرغبتين المتصارعتين ، وهى لا تظهر إلا مستخفية أو متنكرة فى غير صورتها ، ولذلك لا يفتن المرء إلى حقيقتها .

ومن هنا نرى أن أعراض المرض العصبى تشبه أعراض الحلم فى تكوينها ومنشأها ، وفى أن كلا منها تعتبر مظهرا تنكريا لرغبة مكبونة .

الفن منفذ النزوات الغريزية المكبونة:

والفن من السبل التى تسلكها النزعات الخيالية الناشئة عن الكبت، فى سعيها للعودة إلى عالم الحقيقة . وما الفنان إلا شخص طوى جوع الجنس فى نفسه ، فأثار نزعاته الخيالية . وهو بهذا الوضع ليس بمنأى عن المرض العصبى . ذلك لأنه يعانى من حاجات غريزية لا سبيل له إلى إشباعها ، لذلك فإن طول الحنين إلى الإشباع لا يلبث أن يتحول من الحقيقة إلى محاولة الإشباع بالابتكار والخلق الخيالى .

وهناك هدف آخر ، ثانوى ، من وراء أعراض الأمراض العصبية. فإن نفس المريض تستخدمها فى اجتذاب الانتباه واستدرار العطف والحب ، أو فى تفادى الأمور التى لا تروق للمرء ، أو فى الانتقام للنفس من الغير ، أو فى أخذ النفس بالشدة عقابا لها وتكفيرا عما يحال أنه ارتكب من ذنوب.

اختلال عصبى جسمانى .. ونفسانى:

وينقسم الاختلال العصبى إلى نوعين : أولهما الاختلال الذى يصيب الأعصاب فعلا ، كالنورستانيا ، والتهايج العصبى ، والهيو كنداريا أو الوسواس .

أما النوع الثانى ، فهو الاختلال العصبى النفسانى ، كالهستيريا والخبيل . وفى القسم الأول ، تكون الأعراض فى أغلب الأحوال بدنية تظهر على أعضاء الجسد . أما فى الثانى فتبدو الأعراض كحلقات أخيرة فى سلسلة من العمليات والحالات العقلية . وكثيرا ما يجتمع النوعان معا .

والمغالاة فى القلق والتشكك إلى درجة التهوس ، ظاهرة غالبية فى هذه الأحوال . والمعتقد أن أولى حالات القلق تصاحب الإنسان عند مولده . والقلق العادى هو رد فعل الشخصية إزاء الخطر ، وهو إشارة الاستعداد للفرار . أما القلق فى حالات المرض العصبى فينشأ عن محاولة الشخصية الفرار من مطالب الجوع الجنسى التى تساور النفس دون شعور أو إدراك . وتعامل الشخصية الخطر الداخلى - أى المنبعث من النفس ذاتها - فى هذه الحالات كما لو كان خطرا آتيا من خارج كيان المرء .

لذلك نخاف من رغباتنا وشهواتنا المكبوتة . وقد يحدث أن توارى الجوع الجنسى ويتخفى ، برغم عدم إشباعه - أو إشباعه بغير الطرق الطبيعية السليمة - وينشأ التخفى فى هذه الحالة عن عوامل نفسية ، هى ما نسميه بالكبت والمقاومة أو الصراع النفسانى . أو عن عوامل بدنية عضوية ليس هذا مجال شرحها .

حب الذات وحب الجنس المشابه:

من هذا نخلص إلى أن الجوع الجنسي قد يكون مرتبطا بالغرائز الذاتية التى تكون الشخصية ، ارتباطا جزئيا أو كليا . فإذا كان الارتباط جزئيا فلا بأس ، أنا إذا كان الارتباط كليا ، فالمرء يصاب بحب شخصه . وهو ما يسمونه « النارسيซึม » وهذا الداء يختلف عن الأنانية ، إذ أن حب الذات فى الأنانية يتجه إلى حب إثارةها بكل ما فيه صلاحها . أما فى حالة « النارسيซึม » فإن الإيثار يمتد ليشمل اشتهاى المرء لجسمه أيضا . ومن مراحل التطور فى الطفولة مرحلة شبيهة بهذه ، تتوسط بين مرحلة الاستمتاع بإثارة المناطق الحساسة كالفم وأعضاء التناسل وبين مرحلة الحب المادى أو على الأصح الحب الذى يتجه إلى الجنس الآخر

ويتميز مرض « النارسيซึม » - أو حب الشخص لذاته - بأن الحوافز والمتع الجنسية للمرء ، تتجه خلاله إلى شخصه بنفس الطريقة التى تتجه بها هذه الحوافز والمتع عند الشخص البالغ عادة إلى شخص يهواه . فهو يهوى نفسه . وقد تتجمد هذه الحالة من أيام الطفولة ، لتبعث كمرض فى الكبر .

وهذه الحقائق تلقى أضواء على داء حب الجنس المشابه . أى غرام الذكر بالذكر ، والأنثى بالأنثى ، غراما جنسيا . كما أنها تكشف عن غوامض بعض الأمراض العقلية كالعته ، والخبل ، والتهوس ، مما لا مجال لشرحه هنا .

كما يتحدث د. مصطفى فهمى عن الدوافع النفسية للغرائز قائلا :

نظرية الدوافع:

هناك عدة نظريات فى تحليل الدوافع ، وهى :

أ- نظرية الغرائز :

ويتبناها (مكدوجل) ، وتنطلق من كون الغريزة هى المحرك لسلوك الإنسان ، والغريزة عبارة عن استعداد قطرى لا يحتاج إلى تعلم ، يدفع الكائن الحى إلى القيام بسلوك خاص فى موقف معين ، وقد وضع مكدوجل ١٤ غريزة ، أضاف إليها

غرائز أخرى، ومن أهمها غريزة المقاتلة، البحث عن الطعام، التملك، الجنس، الأبوة، الراحة، النوم.

وقد كان مكدوجل يعبر عن هذه الغرائز بالغرائز الفطرية. إلا أن هذه النظرية لقيت بعض النقد، ومن أهم ما وجه إليها من نقد نذكر:

١ - تنافي اتجاه الغرائز الفطرية مع الاتجاه العلمي للبحث، وكونها خارجة عن إطار السيطرة والتحكم، إذ أن الغريزة من الأمور الانفعالية.

٢ - التشكيك في عدد الغرائز المطروحة، ويصل العدد، في رأى وليم جيمس، إلى مئة غريزة.

٣ - يرى علماء الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع أن الاختلاف، في سلوك الإنسان، يعود إلى الاختلاف في الثقافة بين مجتمع وآخر، فتتفى بعض الغرائز عند بعض المجتمعات، كغريزة المقاتلة، مثلاً، إذ أن بعض المجتمعات، كالهنود الحمر، في كندا، يتنازلون عن الممتلكات تعبيرا عن الفوز بالمعركة، كان تحدى الإنسان لدافع التملك دليل على الفوز.

إلا أن هذه الانتقادات في الحقيقة لا ترقى إلى مستوى دحض النظرية بكاملها؛ إذ أن كون الغريزة خارجة عن إطار البحث والتدقيق العلمي، لا ينفي وجودها، فضلا عن أن الاختلاف في عددها لا ينفي أيضا وجودها؛ إذ قد يكون هناك اختلاف في بعض الغرائز، ولكن هناك اتفاق على بعضها من دون أشكال، كغريزة الأكل والجنس وحب الاستطلاع والتملك، بل والشعور بها وجدانا.

ب - نظرية مدرسة التحليل النفسي :

وزعيم هذه المدرسة هو (فرويد)، وقد عرف فرويد الغريزة بأنها تعبير عن قوة نفسية راسخة تصدر من صميم الكائن العضوي، وتنبع أصلا من حاجات البدن، بما يجرى في الجسم من حاجات فيزيولوجية؛ إذ أن هذه الحاجات تثير توترا نفسيا، فإما أن تلبى فينخفض التوتر، أو تبقى وتتحول إلى اللاشعور، وتغلو حالة من

الفصل التاسع: فرويد .. والغريزة الجنسية

الحالات كالكبت والإحباط.

وطرح فرويد نظريتين للغرائز:

١ - نظرية التعارض بين الغرائز الجنسية وغرائز الأنا، فالإشباع الجنسي يعارضه القلق والإثم والمثل الخلقية والجمالية للانا، ومن ثم فإن القوى المعارضة للترعات الجنسية، وهى القوى التى تعمل على ضبط الأنا، تسمى (غرائز الأنا). وإذا تفوقت غرائز الأنا على التزعات الجنسية فإنها تقوم بكبت هذه التزعات.

٢ - نظرية التمييز بين غرائز الحياة وغرائز الموت، فالأولى تهدف إلى بقاء الكائن الحى والأخرى على خلافها.

وقد قسم فرويد الجهاز النفسى إلى ثلاثة أقسام هي: الأنا والهو والأنا الأعلى، فالهو يحتوى على الفطرى والموروثات والغرائز بشكلها العام، بما تحمل من رغبات وميول. والأنا يقوم بالتوفيق بين مطالب الهو والواقع، فيشبع الرغبات والميول فى بعض الحالات ويؤجلها إلى حالات أخرى، والأنا الأعلى يمثل الجهاز الذى يكتسبه الطفل خلال حياته فيسمح بإشباع بعضها وتأجيل الأخرى.

إلا أن فرويد وضع جوهر نظريته تحت فرضيتين هما: (الليبدو)، وهو المراحل الأولى للطفل، و(عقدة أوديب)، وهى المرحلة الثانية. إلا أن هذه النظرية لقيت بعض الانتقادات، ومن أهمها:

١ - انطلاقها من كون (الليبدو) هو المحرك الأصيل للسلوك، وهى فى ذاتها غير خاضعة للبحث أو التجريب.

٢ - الصراع الذى تعيشه النفس الإنسانية بين الهو والأنا غير خاضع للملاحظة العلمية.

٣ - انطلق فرويد، فى نظريته، من دراسة مرضاه، فى مدينة (فيينا)، وجميعهم كانوا من الطبقة المتوسطة، ما يعنى محدودية الإطار الواقعى لانطلاقة النظرية. إلا أن هذه

الانتقادات لا تخلو من ضعف، فعدم إمكانية رؤية الصورة الواضحة للبدو أو اللاشعور أو حالة الصراع، لا ينفي حقيقة ما تلاقيه النفس، وجدانا، أو ما يمكن إثباته من خلال العناصر الخارجية الدالة على تلك الحالة، ومع ذلك فإن ترتيبه مراحل تكون اللبدو، أو عقدة أوديب، خال من الربط المنطقي.

ج- النظرية السلوكية :

وهي، في حقيقتها، ردود فعل على مدرسة التحليل النفسى التى طرحها فرويد. وصاحب هذه النظرية هو « واطسون » انطلقت المدرسة السلوكية من دراسة المثير والاستجابة وتكون العادة، ويرى واطسن أن السلوك والشعور متناقضان. وفتح (ثورنديك) باب دراسة سلوك الحيوان للتعرف إلى بعض سلوك الإنسان كوجود الحاجز بين الحيوان والطعام ومحاولات الحيوان الوصول إلى الأكل بعدة طرق، ولكن هذه المحاولات تقل في المحاولات التالية نظرا لتكرار العادة.

وقد تطورت المدرسة السلوكية على يد (واطسن) الذى استفاد من أبحاث (بافلوف) و(بخترييف) فى الفعل المنعكس الشرطي، فالخوف والغضب والحب هى نماذج لانفعالات أصلية، ولكل واحد منها مثيره المرتبط به أصلا، ولكن حينما تقترن تلك المثيرات بمثيرات أخرى شرطية فإن المثير الشرطى يمكن أن يحل محل المثير الأصلي.

وقد طور (كلارك هل) النظرية السلوكية بشكل كبير، واعتمد على نظريات (بافلوف) فى الاقتراح الشرطي، وعد المنعكس الشرطى الوحدة السلوكية البسيطة .

والنظرية السلوكية متأثرة أساسا بنظرية نيوتن، ما أدى إلى تسميتها بالنظرية الذرية، وهى قريبة - فى تحليلها السلوك بالفعل ورد الفعل - من الشكل الميكانيكي، فلكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار، ومختلف عنه فى الاتجاه.

وقد انتقدت النظرية السلوكية من منطلق المقارنة بالنظرية الميكانيكية نفسه

الفصل التاسع: فرويد .. والغريزة الجنسية

(نيوتن)، فهي تنطلق، في تحليل السلوك، من المثيرات والاستجابات من دون الاهتمام بجانب الإدراك في تفسير السلوك. وننقل هنا ما نقله د. مصطفى فهمي عن الدكتور نجيب إسكندر في نقد النظرية السلوكية.

ويتضح، من كل ما سبق، أن الاتجاه التحليلي الجزئي الميكانيكي عند (هل) يظهر بوضوح في إصراره على التمسك بمبدأ التدعيم باعتباره الأساس الوحيد للتعلم، وهو مبدأ يؤدي إلى البحث عن الدقائق المادية للظاهرة، وإلى إغفال المجال الكلي الذي تحدث فيه.

وما يؤخذ على هذه النظرية من أنها ميكانيكية في تصور المثير والاستجابة، أو أنها قريبة من العناصر المادية في تصور الظاهرة، غير كاف لردّها، فالنظرية إنما ترد إذا كانت قاصرة عن ربط المثيرات بالاستجابات، بحيث تعد غير مترابطة في تحليل العناصر المختلفة من مثير واستجابة وكيان نفسى داخلي، ولذا فإن نقدها من حيث عدم اهتمامها بجانب الإدراك قد يعد من الانتقادات المثيرة.

د - نظرية الاستقلال الوظيفي :

صاحب هذه النظرية الباحث «جوردن ألبورت»، وتنطلق من أن الميول والاتجاهات الأولية (الفطرية) تكون العنصر الأساسى للسلوك الأول، وهو يمهد إلى تكون حاجات وميول أخرى تكون السلوك الثانى. وهكذا فالإنسان يتولد عنده السلوك كلما أصبح في سلوك معين. وما يؤخذ عليها هو عدم ثبات سلوك الإنسان، فهو في تحرك مستمر ويصعب رصده، بالإضافة إلى أن الملاحظ في الخارج هو ثبات كثير من مظاهر السلوك عند الناس كصفات الكرم والشجاعة والحلم التى تعد ثابتة، إلا أن بعض التصرفات الخارجية المرتبطة بها قد تتغير، فقد ترى فقيراً فتعطيه كذا جنيهاً، وتراه في يوم آخر، فتعطيه أكثر أو أقل، فهذا لا يرتبط بحالة الكرم، وإنما يتعلق بشكل كبير بالحالة النفسية في تقييم الشخص المقابل.

هـ - نظرية ديناميكية السلوك :

تعتمد هذه النظرية على العلاقة بين السلوك والمجال النفسي، ومحورها هو اللا شعور وما يسببه من حالة توتر تحرك الفرد نحو الهدف، فيضاعف مجهوده أو يبدل الغرض الأصلي أو يشعر بالإحباط، وتتبع عن ذلك كله حالات الاعتداء أو النكوص أو الكبت أو الإسقاط، أو التفكير الاجتراري، أو التقمص.

فالمجال النفسي للإنسان يتمثل في شبكة من الاتجاهات والمواقف، ما يجعل حاجات الفرد ومطالبه عبارة عن قوى واضحة بأنماط مختلفة من السلوك.

وخلاصة النظرية، بشكل أدق، هي العلاقة بين القوة الدافعة والغاية التي تتجه إليها هذه القوة، وهو ما يعبر عنه بديناميكية السلوك.

ويبدو أن هذه النظرية، على قوة طرحها، ليست متداولة بشكل كبير، وقد يكون سبب ذلك هو عدم وجود دراسات واسعة وتطبيقية عنها، ما يجعلها محدودة في الإطار النظري أكثر منها في الإطار العملي، وربما يكون هناك سبب آخر، هو عدم ظهور مستوى عال من المتحمسين لها لترويجها أكثر.